من فندق... إلى فندق

لم يشعر بمثل هذا من قبل، هذه أول مرة ينتابه فيها مثل هذا الشعور، أحس بالكون من حوله واسعاً جداً فسيحاً جداً، وهو يحلق في الأجواء كاليمامة، يفرد جناحيه، يرق يصفو كأنه غمامة بيضاء، تسري في جسده قشعريرة رطبة هادئة، مثل شذى ناعم، مثل شعاع لطيف ينساب مع الفجر، يسبح في النور والأشذاء، كأنه فراشة ترف نحو النور، يرفع يديه إلى الأعلى، راحتاه مبسوطتان، كأنه يتلقى الأنداء، لم يتكلم، لم تنبس شفتاه بشيء، لكنه يسمع في الأرجاء صدى صوت يردد: «يا رب»، وتنتابه رعشة البكاء.

❖ ❖ ❖

أغلق باب السيارة وراءه بعنف، رمى المفتاح للخادم الواقف بباب الفندق، واتجه كالنَّمِر إلى جناحه المحجوز منذ ثلاثة أيام، التفت إلى الخادم الداخل وراءه، شتمه، ثم صاح به:

ـ **هيا، بدِّل كل شيء.**

وانهمك الخدم كالنمل في تبديل غطاء السرير والوسائد، ومسح المرايا والجدران، وضعوا أواني عطر جديدة لم تفتح،

جلبوا باقات زهور، أفرغوا الحقائب، وضعوا كل شيء مكانه في الخزائن.

خلع قميصه، رماه، فتح الخزانة، نادى الخادم وهو يهم بالخروج، رجع إليه، أمره:

- احمل هذا القميص، وكل القمصان التي هناك في الخزانة، كلها جديدة، تصرف بها كما تشاء، خذها لك، انزل إلى السوق واشتر لي عشرة قمصان جديدة، من أحدث زي في بلدكم، سأعتمد على ذوقك.

وقذف إليه بخمسمئة دولار.

ودخل خادم آخر بسلة فواكه طازجة، تناول منها حبة عنب، مجَّها، ثم قال له:

- عد بهذه السلة، لا أريدها، أحضر لي كأس عصير.

❖ ❖ ❖

في صباح اليوم التالي، قال لعامل الاستقبال:

- لم يعجبني الجناح، أريد غيره.

همس العامل:

- ولكن هذا هو جناحك الخاص الذي تنزل فيه دائماً.

حدجه بنظرة ساخرة، كأنه ينظر إلى فأر، صرخ في وجهه، وهو يفحُّ وينفخ كالثعبان:

ـ بدل الجناح كما أمرتك.

❖ ❖ ❖

رجع إلى الفندق في الرابعة والنصف، مع فجر اليوم التالي.

قال لعامل الاستقبال:

ـ أي جناح اخترت لي؟

ـ السيد المدير اختار لك جناحاً مطلاً على البحر، وهو هادئ ومريح.

صرخ به:

ـ ألا تعرف أني لا أحب البحر في الليل؟ افتح لي جناحاً مطلاً على الشرق، أحب الشمس في شروقها.

وفي جناحه الجديد قال للخادم:

ـ اترك حاجاتي في ذلك الجناح، ليبق محجوزاً، أسدل الستائر قبل أن تخرج، قل لعامل الاستقبال لا أريد أي اتصال هاتفي، ليوقظني عند الثانية عشرة ظهراً، لديَّ موعد في الواحدة.

❖ ❖ ❖

السيارة تنطلق، والموسيقا تهدر مثل ثور هائج، والتكييف البارد جبل من جليد ينصب عليه، والشمس في الخارج جهنم تشتعل.

ينظر إلى الشمس، يضحك، يقهقه، والرمال الصفراء تمتد أمامه، وتمتد، وتمتد، يصيح كغراب ناعق: اشتعلي أيتها الشمس، لا أريد غمامة ولا ظلاً، والتهبي أيتها الأرض وارميني بما شئت من رمالك، لا أريد شارعاً ولا جسراً، سأخترقك أيتها الرمال، سيارتي لا يخترقها الرصاص.

ويبرز أمامه قصر من زجاج شفاف، المياه تسح على جدرانه، كأنه جليد شفاف، متى بني هذا القصر؟ وكيف ظهر هكذا فجأة؟ الشمس لا تذيبه، والرمال لا تغطيه، بل كل شيء حوله أخضر.

سأخترقه، سأحطم جدرانه، وينقضُّ عليه كالنسر.

❖ ❖ ❖

مياه عكرة، في مغاور سوداء، أسقفها تتداعى، وهو معلق من قدميه مثل خفاش، الحجارة تتساقط، يسقط في بئر، يسبح بصعوبة مثل سلحفاة، بعوض وذباب يتطاير، طحالب سوداء تلتف على قدمه، وسمكة سوداء ذات حراشف كالأشواك تتجه نحوه، فمها كالحربة يمتد صوبه، رأس الحربة ينغرس في خاصرته، شيء ما يخنقه.

يحرك يده بصعوبة، يدفع باب السيارة، ويسقط على الرمل، يتلوى كذئب واقع في فخ، والسيارة إلى جانبه منقلبة.

❖ ❖ ❖

ثمة سيارة أخرى تقف إلى جواره، ورجال ثلاثة يسرعون إليه، وهو يرفع إليهم يده، مثل شاة ذبيحة، يخشى ألا يروه، ولكنهم كانوا متجهين إليه.

❖ ❖ ❖

بهدوء ينزل من سيارته، يغلق وراءه الباب بلطف، يدخل إلى بهو فندق صغير، مخبوء وراء عمارة كبيرة، عند المنعطف، في شارع فرعي،، يطلب غرفة صغيرة بسرير واحد، يعتذر إلى الخادم، يأبى إلا أن يحمل حقيبته إلى غرفته بنفسه، يدخل غرفته الصغيرة، يعتذر ثانية إلى الخادم، يقول له:

- شكراً، لا أريد أي شيء، لن أتناول طعامي في الغرفة، سأنزل إلى السوق.

❖ ❖ ❖

يتجه إلى النافذة، يطل على الشارع، يرى الحركة والضجيج والباعة والمشترين.

الآن عرفت حقيقة الحياة.

يقرع الباب، ويدخل خادم آخر، لا يذكر أين رآه من قبل، وهو يحمل فنجان قهوة، يلتفت إليه، يعتذر بلطف، يقول له:

ـ ولكن أنا لم أطلب أي شيء.

يرد الخادم:

ـ هذا ضيافة مني، أنا أعرفك، كنت تنزل في الفندق المقابل، هناك في الطرف الآخر، أحسنت إذ جئت إلى هذا الفندق، أنا تركت العمل هناك، وجئت إلى هنا.

ـ ولماذا جئت إلى هذا الفندق المتواضع؟ هل طردوك من هناك؟

ويرد:

ـ لا، أنا اخترت العمل هنا بنفسي، أنا أريد أن يصلني رزقي عن طريق الحلال.

❖ ❖ ❖

لم يشعر بمثل هذا من قبل، هذه أول مرة ينتابه فيها مثل هذا الشعور، أحس بالكون من حوله واسعاً جداً فسيحاً جداً، وهو يحلق في الأجواء كاليمامة، يفرد جناحيه، يرق يصفو كأنه غمامة بيضاء، تسري في جسده قشعريرة رطبة هادئة، مثل شذى ناعم، مثل شعاع لطيف ينساب مع الفجر،

يسبح في النور والأشذاء، كأنه فراشة ترف نحو النور، يرفع يديه إلى الأعلى، راحتاه مبسوطتان، كأنه يتلقى الأنداء، لم يتكلم، لم تنبس شفتاه بشيء، لكنه يسمع في الأرجاء صدى صوت يردد: «يا رب»، وتنتابه رعشة البكاء.